

استراتيجية البناء الفكري عند مالك بن نبي

د. نبيلة بودي

أستاذة محاضرة، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 3

ملخص-يركز مالك بن نبي، من خلال مجمل أفكاره، على أن عناصر تركيب حضارة ما ولوازمها موجودة في كل المجتمعات بدون استثناء، لكن عملية تركيبها تعود إلى عنصر أو معطى خاص تمثل عند "هيجل" في الجدلية التاريخية وعند "أرنولد توينبي" في وظيفة التحدي والاستجابة، وعند ماركس في المادية التاريخية، بينما تحدد عند مالك بن نبي في الفكرة الدينية المرتبطة بالفاعلية البشرية، التي تحول وضعية التخلف والضعف إلى وضعية قوة وتقدم من خلال تغيير ذاتية الإنسان من الداخل (النفس).

الكلمات المفتاحية:
الفكرة الدينية
- بناء فكري
- تجديد حضاري
- استراتيجية.

Abstract-Malek Bennabi stresses the fact that the elements and the needs for a civilisation building exist in all societies without any exception, but their combination depends on one specific element determined by Hegel as the historical dialectic, by Arnold Toynbee as the challenge and response function, by Marx as the historical materialism, and by Malek Bennabi as the religious idea linked to the human efficiency, which transforms a situation of under-development and weakness to a situation of power and progress, by changing the Man from within.

Key Words:
Religious idea
-Intellectual
building
-Civilisational
renewal-
Strategy.

مقدمة

اكتساب صفة الوجود الحضاري لأية أمة من الأمم تضمنه، في كثير من الحالات، معاملات المعادلة التاريخية المتأسسة وتضبطه في الزمن الحركي الفاعل لبعدي الزمان والمكان. فهذه المعادلة المعرفية، البنيوية والبنائية، لا تقوم أبداً على أساس المفاضلة الجغرافية أو القومية أو حتى الدينية بين الأمم والأجناس، فالفارق هنا يقوم بالدرجة الأولى والأساسية على سعة الحوض المعرفي ونوعيته، وطبيعة الطاقة الاستيعابية للحركة الإبداعية والابتكارية للإنسان في محيطه الثقافي والمعرفي، ولتأمين الجهد العلمي الذي يبذله الإنسان المفكر والمبدع، في سياق تشغيل آلة الفعل المتضمنة في الشرط الإنساني من جهة وآلة الفكر المتضمنة في الشرط المعرفي من جهة ثانية وتوظيفهما حسب سرعة وزمن فاعلية الإنتاج العلمي في هذا الحوض المعرفي وفق الزمن الحركي.⁽¹⁾

وفي سياق هذا المعنى، ظهرت محاولات عديدة تهتم بتقديم الأسس الفكرية والمنهجية الكفيلة بتفعيل السعي نحو بناء منظومة فكرية بديلة للمنظومة الفكرية الغربية المهيمنة، وتصبو من ثم إلى إعادة بناء العقل المسلم وتشكيل بنيته ضمن رؤية معرفية إسلامية كلية للكون والحياة والإنسان الذي يمثلته التصوّر التوحيدي والمنهجية السياسية والمعرفية التي تستقي مرجعيتها من الوحي ومن العقل ومن الواقع السياسي التاريخي، كل حسب أولويات مرجعيته المعرفية وأولوياته في تبني آليات وميكانيزمات منهجية معينة وانتقاء مصادر معرفية محدّدة، وذلك من أجل تفعيل عملية البناء الحضاري. وفي هذا الإطار المعرفي والرؤية المنهجية تدخل مساهمة مالك بن نبي الفكرية والمعرفية عموماً. فما هي إذن، أسس تفعيل عملية البناء الحضاري الفكرية عند مالك بن نبي؟

I. التجديد الحضاري كأساس للبناء والتطور

تفرّد مالك بن نبي بطرح وتصور خاصين ميّزا فكره بخصائص منهجية وعلمية ارتقت بفكره إلى وضع نظرية في الحضارة حسب بعض النقاد والمفكرين. فقد شاع في الوسط الفكري نوعان من التعاريف حول مفهوم الحضارة وهما: التعريف الموضوعي للحضارة والتعريف الذاتي لها.

يطلق التعريف الموضوعي لفظ الحضارة على "جملة من مظاهر التقدّم العلمي والتقني والأدبي والفني، التي تنتقل من جيل إلى آخر في مجتمع واحد أو في عدّة مجتمعات متماثلة؛ فنقول مثلاً الحضارة

(1) سعيد عيادي، «آليات إعادة البناء الحضاري للإنسان والمجتمع»، بدون طبعة. الجزائر: دار المعاصرة للنشر والتوزيع،

الهندية والحضارة العربية والحضارة الأوروبية وغيرها. فالحضارة بهذا المدلول مختلفة فيما بينها عبر العصور، فلكل حضارة نطاقها (أي حدودها الجغرافية) وكذا طبقاتها (أي آثارها المتراكمة) ولغاتهما وخصوصياتهما الأخرى. ⁽²⁾ فبينما يتناول التعريف الموضوعي لفظ الحضارة بهذا المدلول، يتناول بدوره التعريف الذاتي للحضارة "لفظ الحضارة" من منظور ذاتي، حيث يطلق على مرحلة متقدمة من مراحل تطوّر البشرية، التي تُكوّن صورة غائبة تكون بمثابة مرجعية للحكم على حضارة أفراد أو مجتمعات وعلى عدم حضارتهم.

فكلما حدث اقتراب من تلك الصورة الغائبة، حدث اقتراب الأفراد أو المجتمعات من صفة الحضارة ومن دائرة الانتماء إليها، وإلى إطارها العام، الذي يتشكّل في مظاهر التقدّم العلمي والتقني وفي انتشار ظواهر الرفاهية المادية وأسبابها وعقلانية التنظيم الاجتماعي والميل إلى القيم الروحية والفضائل الأخلاقية. ⁽³⁾ وبهذا يكون لفظ الحضارة قريباً من لفظ الثقافة، ويبقى الفارق الأساسي بينهما اقتصر الثقافة على مظاهر التقدم الفكري وهي ذات طابع فردي فيما تتجاوز الحضارة مظاهر التقدم الفكري؛ لتشمل مظاهر التقدم المادي أيضاً، وهي ذات طابع اجتماعي. ⁽⁴⁾ فظروف الإنسان وواقع المجتمع والأمة بتراكم سلبياته وتضاعف تأثير عوامل التخلف والتبعية والتأخّر التاريخي، أمور تجعل من تحمّل الدور التاريخي التغييري في صراع دائم بين فكر المشاريع الحضارية ومكوّناته المختلفة ضمن ما يدعى بالمغالبة الحضارية المتولّدة عن ظاهرة التلاحق الحضاري. ⁽⁵⁾

إلا أنّ مالك بن نبي لا يتصوّر الحضارة إلّا في إطار مقابلة بين المجتمعات النامية والمجتمعات المتخلفة، فهي ليست بالضرورة شكلاً من أشكال تنظيم الحياة البشرية كما يُعرّفها بعض الأنثروبولوجيون، وليست بالضرورة المجتمعات النامية التي قد تكون نسبة الحضارة والتخلف فيها نفسها، لأنّها دول مستعمرة أو قابلة للاستعمار. فالحضارة لا تعني بالضرورة التقدم في جميع أطر الحياة، لأنّها قد تقع في الشئبوية والتبعية لقيامها على استيراد منتجات الغير، إنّما مفهوم الحضارة "ليس مجرد تكديس لمنتجات فكرية ومادية، إنّها قدرة على البناء والخلق والإبداع، ضمن محيط له شروط وعوامل، وفي إطار منهج يحدّد نقطة

(2) بوبكر جيلالي، «استراتيجية البناء الحضاري عند مالك بن نبي»، ط 1. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2011، ص 38.

(3) نفس المرجع، ص 38.

(4) نفس المرجع، ص 39.

(5) سعيد عيادي، البراديعم الإسلامي وإعادة البناء الحضاري، ط 1. الجزائر: دار النشر والطباعة بن مرابط، 2009، ص 24.

الانطلاق ونقطة الوصول كما يرسم بوضوح الإستراتيجية التي تحدّد الطريق وتحدّد الوسائل والأهداف ضمن رؤية شاملة وواضحة تتميز بالدقة والعمق" (6)، فهي أي الحضارة، إذن، "ليست انتهاج أسلوب التكديس لغرض التحضّر، لأنّه يغرق المجتمع في الشيفيّة والتبعيّة بعيدا عن التحضّر والاستقلال، إنّما الحضارة، هي التي تلد منتجاتها. وقدرة الإنسان على بلوغ الحضارة مرتبطة بحضور الإرادة؛ التي تلازم جوهر الحضارة، والتي تتكوّن من خلال القيم التي آمن بها المجتمع والأهداف التي اعتنقها، ضمن منظور واع ينبذ العفوية والفوضى ويتّخذ الدقة والعمق والعلم والمنطق أسساً له." (7)

فمن الضروري هنا التّنبية إلى أنّ عناصر ولوازم تركيب حضارة ما موجودة في كلّ المجتمعات بدون استثناء، لكنّ عملية تركيبها تعود إلى عنصر أو معطية خاصة يعتبرها "هيجل" (الجدلية الفكرية) ويرجعها "أرنولد توينبي" إلى (وظيفة التحدي) ويسقطها "ماركس" داخل (المادية الجدلية) بينما تعود عند "مالك بن نبي" إلى (الفكرة الدينية). ففي إطار تصوّره للحضارة سواء في المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي، ترجع حركة التطوّر الاجتماعي وأساس تحريك عجلة التاريخ وكذا وضع أسس بناء متحضّر إلى الفكرة الدينية (8) "فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان... فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجه التاريخي على أنّها حدث ومن الوجهة الكونية على أنّها عنوان على حركة تطوّر اجتماعي واحد." (9) والفكرة الدينية (حسب مالك بن نبي) أو أي مبدأ أخلاقي معيّن (حسب آخرين) هما نقطة البداية التي تصدر عنهما الأوجه المتصلة بالعقل؛ حيث تنتشر وتكبر بقدراته وإمكاناته وثماره، والأفول حيث تنتهي الحضارة بفقدان روح السيطرة على الرغبات الخفية والغرائز. (10)

كان تصوّر مالك بن نبي لنهضة الأمم بمثابة استراتيجية للبناء الحضاري الشامل، أو للنهضة الحضارية، تتجلّى استراتيجيته فيما يسمى بالتجديد الحضاري، كأساس للبناء والتطوّر؛ حيث يتطلب بناؤه قيامه على فاعلية بشرية تُحوّل وضعية التخلف والانحطاط إلى وضعية تقدّم ونهضة وتحضّر. وكلّ

(6) بوبكر جيلالي، مرجع سابق، ص 42.

(7) بوبكر جيلالي، مرجع سابق، ص 42.

(8) نفس المرجع، ص 58.

(9) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 3. الجزائر: دار الفكر، 1986، ص 52.

(10) بوبكر جيلالي، مرجع سابق، ص 72.

ذلك يتم من خلال تغيير الإنسان من الداخل ، وهذا لا يتأتى إلا بمجهودات تصدر عن إنسان يكون قد عاش التغير في داخله ، نفسيته وذهنيته على السواء ، الأمر الذي يمكنه من تغيير أخلاقه وسلوكه ومن ثم تغيير محيطه الاجتماعي والطبيعي . ومن حيث التطور ، نقول إنه إذا كان التجديد الحضاري عنصرا تكوينيا وتركيبيا في قيام حضارة ما كونه يقدم ما هو جديد في الجانب المعنوي والمادي ، فإن عملية تطوير هذين الجانبين تدريجيا ، في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . . . ليس أقل أهمية منه . فالتجديد الحضاري بقدر ما هو شرط خاص لتكوين الحضارة ، ومن ثم بداهة توفره كعنصر سابق لهذه الحضارة ، إلا أن خاصية استمرار ملازمته للحضارة ، بعد قيامها ، ضرورة لبقائها وتطورها . (11) فمعالجة مشكلة المجتمعات ، كونها مشكلة من مشكلات الحضارة ، يكون من خلال تأسيس علاقة تفاعلية بين الدورة الحضارية والفكرة الدينية ، باعتبار هذه الأخيرة مركبا يعمل على تأسيس وتجميع العناصر المكونة للتاريخ ، رغم صعوبة تأكيد قدر الصواب داخل هذه الفكرة ، لاعتمادها على شهادة الأحداث التاريخية عن هذه الظاهرة ، دون القدرة على تكوين تفسير مقبول لها . فالرقي بالعقل البشري إلى دائرة الحلول لمشكلة الحضارات هو بدوره رقي بهذا العقل إلى استيعاب الأحداث الإنسانية ، والتقصي عن خلفيات بناء الحضارات وتداعيات سقوطها واندثارها . (12)

II. لحظة ميلاد مجتمع قد تتفق مع لحظة انبثاق حضارة

ينبغي الالتفات في فهم وتحليل المجتمعات إلى ميلاد هذا المجتمع المعني بالتحليل والفهم ، وإلى أصل نشأته التي قد تكون نتيجة عوامل طبيعية ، تملي التكيف على مجموعة إنسانية معينة ، وهذا حال المجتمع الأمريكي مثلا الذي أفرزته هجرة مجموعات أوربية اضطرت للاستقرار ضمن ظروف طبيعية معينة . وقد يكون أصل تكون المجتمع ومنبع ميلاده "فكرة" ، مثل ما حدث مع المجتمع الإسلامي وحتى المجتمع الأوروبي المسيحي ، وهذا يعني أن ميلاد المجتمع قد يرتبط بفرد واحد . وقد ذكر القرآن عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : "إن إبراهيم أمة" (سورة النمل آية 120) ، واختصار الأمة في شخص واحد هنا تعني إمكانية التغيير داخل المجتمع ، التي قد تحدث على يد شخص واحد يحمل فكرة ، الأمر الذي قد يؤدي إلى ميلاد مجتمع جديد بفكر جديد ومن ثم ظهور أمة . فالمجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد بل هو

(11) نفس المرجع ، ص 94 .

(12) مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ط 1 . الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع ، ص 21 .

تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقا لنظام معين، وهذا النظام يقوم عند مالك بن نبي على عناصر ثلاثة "حركة يتسم بها المجتمع الإنساني، إنتاج لأسباب هذه الحركة وتحديد لاتجاهها." (13)

وهذه العناصر لا يقتصر معناها على تنظيم المجتمع فقط، بل تكسب المجتمع معناه العميق الذي يخرج من كونه مجموعة من الأفراد إلى كيان يعبر عن جماعة إنسانية لها صفة المجتمع، عندما تخرج من ثباتها وركودها وتحرك من أجل تحقيق تغيير في داخلها وتضع هدفا تروجو وتصبو للوصول إليه. فنقطة بداية حركية هذه المجموعة الإنسانية للارتقاء بنفسها نحو الأفضل، وفي ظل غائية تطورية وخطة تغييرية، هي لحظة ميلاد مجتمع التي قد تتفق مع لحظة انبثاق حضارة معينة. (14) هذه اللحظة تتمحور عنتها أو سببها عند المؤرخ والمفكر الشهير "أرنولد توينبي" في التحدي، وتعبر بالنسبة لمفكر ماركسي عن العامل الاقتصادي؛ وتكون بالنسبة للمفكر المسلم في دائرة "الوعد والوعيد" الذي رسمه الواقع القرآني، لتظهر العلة فيه النفس. فلحظة ميلاد مجتمع ما، كونها هي المنبع الأولي لصناعة التاريخ، تتم ضمن ثلاثة عوالم تؤثر في تحديد ماهيتها وبالتالي صيرورتها وغايتها، وهي عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء. هذه العوالم الثلاثة التي تفرزها في الواقع عملية التفاعل فيما بينها، نماذج تفكيرية تستند صياغتها، توفر الأشياء أي وسائل تنفيذها والنظر إلى نهاية يرسمها الأشخاص. هذه العملية التفاعلية استوجبت عالما رابعا هو شبكة العلاقات الاجتماعية للوقوف ضمن دائرة الحضارة. (15) يقول مالك بن نبي بهذا الصدد: "المجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد، وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد، من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، وعمل المجتمع ليس مجرد اتفاق عفوي بين الأشخاص والأفكار والأشياء بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة، التركيب الذي يحقق معه ناتج هذا التركيب في اتجاهه وفي مداه تغيير وجوه الحياة أو بمعنى أصح تطور هذا المجتمع." (16)

فلحظة ميلاد المجتمع هي اللحظة التي تبدأ فيها شبكة العلاقات العمل على تكوين التاريخ وصناعته، فلئن كانت الهجرة في المجتمع الإسلامي هي العمل التاريخي الأول، فإن الوثيقة التي جمعت المهاجرين والأنصار كانت منطلق تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية؛ وهي سابقة لواقع تكون العوالم الثلاثة بشكل واضح. ويشهد التاريخ الإسلامي أن بداية تمزق وتفتت هذه العلاقات رغم التحضر؛

(13) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 18.

(14) نفس المرجع، ص 18.

(15) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 27.

(16) نفس المرجع، نفس الصفحة.

أي رغم التطور في العوالم الأخرى، وخصوصا عالم الأشياء، تزامن وتطابق مع بداية ضعف وأول الحضارة الإسلامية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذه المسألة من قبل حين صرح أنه: "يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها". فسئل: "أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟" قال: "بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن" فقيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكرهية الموت". وهذا الحديث هو اختصار نهاية جماعة إنسانية، ضاع منها الهدف وانهارت خططها التغييرية، وتخطمت فيها شبكة العلاقات الاجتماعية وأصبحت في صورة غثاء السيل، تغيب عنه وجهته.

والملاحظ في مثل هذه المجموعة الإنسانية غياب عناصر النظام المكوّنة للمجتمع الإنساني؛ أي غياب الحركية واستمرارها وغياب الأسباب المنتجة لصورة حضارة وغياب الغاية، وهي الدافع لنشوء هذه الحضارة. فضعف واختفاء الحضارة الإسلامية كان أحد أهم أسبابه الأفكار القتالة، التي تحولت بسقوط هذه الحضارة إلى أفكار ميّنة، بقيت خامدة داخل الكيانات الاجتماعية والسياسية التي خلفتها هذه الحضارة، وتشكل في خطورتها المثبط دائما لكل انطلاقة حضارية. (17)

يقول مالك بن نبي بهذا الخصوص: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي (أفكارا ميّنة) تمثل خطرا أشد عليه من خطر (الأفكار القتالة)، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون ما لم تُجر عليها عملية تصفية، تكون الجرائم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه." (18) فلا يمكن في حضور الموقف الاستعماري، إلا القيام بعملية تحويلية على مستوى نية الاستعمار المتمثلة في جلب الحضارة إلى الدول المتخلفة، وعلى مستوى هجومهم على الشخصيات الوطنية المسؤولة بأنها تمنع شعوبها من خيارات الحضارة وبالتالي اعتبار فعلي "حضر" و"استعمار" كمترادفين. (19) فإن كانت عملية بيع منتجات الحضارة الغربية تكسب هذا العالم أشياء مقابل ثرواته التي يصرفها من أجل ذلك، متأثرا بانعكاس ذلك على مصلحته التي تكون متخفية وراء مصلحتهم الخاصة، فإن الحضارة قيم لا تباع ولا تشتري؛ والمقابل لثروات الدول المتخلفة يكون هنا، لا شيء. هذا

(17) مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط 1. الجزائر: دار الفكر، 1991، ص 146.

(18) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(19) مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 133.

اللاشيء الذي استغرق بناؤه فترة صياغة وصناعة الفارق بين طبيعة الثقافة الغربية وموقف الآخر من هذه الثقافة وصلته بها. (20)

فالخصائص الاجتماعية المعبرة عن تنظيم المجتمع واضطرابه وحركته وسكونه، قوّته وركوده وضعفه... ترتبط بعلاقة وظيفية مع المنظومة الفكرية لهذا المجتمع باعتبارها منبع تجديد توجّهاته. (21) والأفكار "تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين، كما أنّ مختلف مراحل تطوره هي في الحقيقة أشكال متنوعة لحركة تطوره الفكري. فإذا ما كانت إحدى هذه المراحل تنطبق على ما يسمى بالنهضة، فإنّ معنى هذا أنّ المجتمع في هذه المرحلة يتمتّع بنظام رائع من الأفكار وإنّ هذا النظام يتيح لكلّ مشكلة من مشاكله الحيوية حلاً مناسباً". (22) فطبيعة العلاقة بين الفرد والأفكار تتحدّد بنفس القدر الذي يعمل فيه الفرد على بناء كيانه، من خلال العناصر المختلفة التي يقدّمها له الوسط الاجتماعي الذي ينمو فيه والذي يذهب من خلاله إلى تنمية الجانب الروحي والنفسي لكيانه، بالموازاة مع كيانه المادي الذي يمنحه إياه البعد الثقافي. (23)

فالفرد ثمرة تركيب كيانه المادي والروحي الذي تؤدي خسارة إحداهما، أو خسارة الاثنين معا إلى فقدان صلة الفرد بوسطه، وهي الصلة التي تطبع عملية التجانس داخل المجتمع وتضغ صفة التفاعل الاجتماعي فيه؛ الذي قد يظهر في موقف تاريخي معين يعدّ بسيطا، لكنّه مع ذلك يعبر عن أرقى صور التجانس الفكري داخل المجتمع. فحين تولّى عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) خلافة المسلمين خطب فيهم: "أيّها الناس، من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه" فأجابه أحد البدو البسطاء: "والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا."

هذا الحوار يقول عنه مالك بن نبي: "حوار فريد كان يطبع بطريقة رائعة أسلوب الحياة في مجتمع اتّحدت فيه حركات الفكر والعواطف ودافع العمل، وفي كلمة واحدة اتّحد فيه شكل السلوك لدى الخليفة والبدوي البسيط، والواقع أنّ عمر في قوله ذلك كان متّجها صوب المجتمع الإسلامي وأنّ الذي أجابه هو ذلك المجتمع على لسان البدوي... كان موقفهما انعكاسا لأسلوب الحياة من ناحية وتعبيرا عن

(20) نفس المرجع، ص 151

(21) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1. الجزائر: دار الفكر، 1984، ص 13.

(22) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(23) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 50.

سلوك معين خاص بالمسلم في ذلك العصر من ناحية أخرى. " (24) فوقع العوامل الثقافية في المجتمعات الغربية والمجتمعات الشيوعية مختلف، إذن، عن وقعها في المجتمعات الإسلامية. فإن كانت الأولى تهتم بالثقافة من حيث المفهوم، أي بماهية الثقافة، فإن المجتمعات الإسلامية تولي أهمية لسبل تنفيذها وتحقيقها بصورة عملية. (25)

والبحث في مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ليس من باب المقارنة، ولا من باب المقاربة مع الفكر الغربي المادي الوضعي بشقيه، الشكل البورجوازي للمجتمع الاستهلاكي والشكل الجدلي للمجتمع السوفييتي، وإنما من باب تجاوز هذا الفكر الوصفي المادي إلى شكل آخر من الفكر، تكون فيه حدود المبادئ الأخلاقية رفيعة ويكون الهدف الأسمى فيه حب الخير وكره الشر (26) طبقا لقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (سورة آل عمران، آية 03).

فالمنظومات الفكرية قائمة على طراز ثقافي ونمط حضاري معين مستمد من كيفية استغلال وتوجيه معطية الوقت داخل كل منظومة لصنع الأشياء، لتكوين ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية أو لبناء الأفكار كأساس لتشييد حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية، وضروري هنا الإشارة إلى أن الإفراط والمغالاة في الوقت الذي أقام صرح المادية الوضعية الغربية لن يمنع أفولها مثلما التفریط واللامبالاة بالوقت لم يمنع أفول ونهاية الحضارة الإسلامية رغم اتخاذ الفكر الإسلامي اندفاعه الأولي من القرآن، ولم يمنع خروج العالم الإسلامي بعده من التاريخ لمدة طويلة فاقد هدفه، ناسيا أو متناسيا أسباب علته ومسترسلا في سبات عميق.

وفي هذا السياق، تأتي مسألة النهضة كركيزة لكل بناء حضاري، ونتيجة لكل صحوة سواء ردها البعض إلى الوسائل السياسية كونهم شخّصوا العلة ضمن حدود المشكلة السياسية، أو ردها آخرون إلى إصلاح للعقيدة باعتبار العلة هنا ضمن حدود المشكلة العقيدية. (27) يبقى أن مالك بن نبي يعتبرها بادرة حضارة أو كما يدعوها بلغة علم الإلهيات "مرحلة إرهاب" تتجه فيها جهود العالم الإسلامي إلى تحصيل

(24) نفس المرجع، ص 51.

(25) نفس المرجع، ص 61.

(26) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط 6. دمشق: دار الفكر، 2005.

(27) مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 45.

حضارة، يكون المقياس العام فيها أن "الحضارة هي التي تلد منتجاتها" (28) من خلال تحصيل العناصر الأولية للحضارة ومشكلتها الجوهرية المتمحورة أساساً حول مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت، إلا أن هذه المعادلة الحضارية تبقى عند مالك بن نبي رهينة تأثير الفكرة الدينية.

III. تأثير الفكرة الدينية في صناعة الحضارة

فتكوين حضارة من هذه العناصر الثلاثة يقتضي، إذن، تدخل مركب بدونه لا تتحقق الحضارة، وهو الفكرة الدينية التي رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ؛ فالحضارة الإسلامية قامت على أصل ديني كانت بدايته كلمة "اقرأ" التي نقلت العناصر الثلاثة للحضارة من دائرة الركود، كونها تعبر عن مجموعة من البدو يقيمون على أرض صحراوية لا تولي أهمية كبيرة لمسألة الوقت، ثم تحولت إلى مجموعة قادة لهم دور كبير في التاريخ، يمكن اعتبارهم النواة الأولى لبداية التأسيس لحضارة جديدة، تحمل في طياتها معاني نموذج متميز من التحضر والمدنية والرفي والتقدم للعالم. فعناصر الحضارة تكونت هنا، بدافع الفكرة الدينية، أي بدافع روحي، كما ظهرت بوادر فتورها أيضاً عندما تراجعت الفكرة الدينية، وتركت الساحة لعامل العقل وحده الذي انحاز إلى عوامل الترف والبذخ؛ أي إلى عالم المادة، فتحول الفتور، بذهاب العقل أيضاً، إلى أفول ونهاية. (29)

ويمكن ملاحظة ما يشبه هذا السيناريو أيضاً في شروط ظهور الحضارة المسيحية، وأمارات أفولها الكثيرة. فظهور الديانة المسيحية اعتبره الكثير من المفكرين الغربيين نقطة ميلاد للحضارة المسيحية، فاستقبالها داخل النفوس في الوسط الجرمانى آنذاك أسس لخلق سام أرح لحلقات تكوين هذه الحضارة، التي نشهد اليوم عوامل تراجع الفكرة الدينية فيها وسواد عامل العقل الذي غالباً ما يميل إلى الشيئية والمادية. ولهذا، فإن العديد من المفكرين في الغرب، أمثال كسرلنج، قد تنبّهوا إلى اهتزاز مركز ثقل الحضارة المسيحية، بتحولها من مجال الروح إلى مجال العقل، فيما تنبأ آخرون أمثال "أوزولد اشبنجلر" في كتابه المعروف "أفول الغرب" بنهاية هذه الحضارة. فبتعميق النظر في هذه الحضارة "نجد تسير سيرة الحضارة الإسلامية التي سبقتها في الزمن، والتاريخ يؤيدنا، ذلك أنه يقرّر أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى فميلاد الفكرة الدينية وأما الثانية فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ". (30)

(28) نفس المرجع، ص 47.

(29) نفس المرجع، ص 57.

(30) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 61.

بهذا المعنى ، حاول مالك بن نبي إسقاط منطق هذه الدورة الحضارية على الحالة الراهنة للشعوب الإسلامية؛ أي حدود إمكانية تكوين الحضارة بدافع من الفكرة الدينية ، وتوصل إلى أن "قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ ، فجوهر الدين مؤثر صالح في كل زمان ومكان" ⁽³¹⁾ ويضيف: "لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال ، إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك والتراب الذي يمدّه بقوته ، الزهيد حتى يصل إلى هدفه والوقت الضروري لوصوله" ⁽³²⁾ . وهذا ما يدعوه مالك بن نبي بالعدة الدائمة .

في ظل هذا الانشغال الكبير بتأثير الفكرة الدينية في صناعة الحضارة ، تأتي دراسة مالك بن نبي للظاهرة القرآنية؛ أي ضمن الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي في دراسة الظاهرة القرآنية يهدف إلى تحقيق معطين على أرض الواقع ، التأمل الناضج في الدين من جهة ، ومن جهة ثانية اقتراح إصلاح مناسب للمنهج القديم في تفسير القرآن . ⁽³³⁾

فاستعمال مفهوم الظاهرة القرآنية للتعبير عن الفكرة الدينية المنبثقة من كتاب الله؛ أي "القرآن الكريم" يعبر عن يقين حول المعنى الذي يحمله التحديد العلمي لكلمة الظاهرة ، الذي ينطبق على مكون الموضوع الجوهرية الذي يسوغه الكتاب الكريم ، فالظاهرة هي "الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها مع النتائج نفسها" ⁽³⁴⁾ والملاحظ في الفكرة الدينية مسألة التكرار للعديد من الموضوعات ، في إطار ظروف معينة كوسيلة لدعم صحتها ، وإضفاء ثبوت أكبر على حقيقتها ، ومنه الرباط الواضح والوثيق بين الرسل والرسالات على مرّ الزمن ، ما يجعل مسألة التواصل المعرفي بينها قائما ⁽³⁵⁾ واضعا أسس الإعجاز كحدث متكرر في الظروف نفسها ليعطي النتائج نفسها ، كحجة يقدمها الرسل لإعجاز خصومهم وكوسيلة تبليغ بالنسبة للدين ، يشترط فيها أن تكون في مستوى إدراك الجميع ، وليس في متناول طاقة أي أحد الإتيان بمثلها . وضروري أن تكون صفة ملازمة عبر العصور والأجيال ، وهذا ما يستثني الديانات الأخرى ، التي لا يمكن إسقاط جميع الشروط عليها ، ما عدا القرآن الذي لم تكن مسألة الإعجاز فيه

(31) نفس المرجع ، ص 65 .

(32) نفس المرجع ، ص 67 .

(33) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط 1 . الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع ، 2013 ، ص 53 .

(34) نفس المرجع ، ص 64 .

(35) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

وقتيّة؛ أي غير مرتبطة بالزمان والمكان، كالعصا واليد البيضاء لموسى، وشفاء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى عند عيسى وغيرها من سنن الإعجاز، التي لم تبق ملازمة للنص عبر السنين والعصور.

فمسألة الإعجاز في القرآن ارتبطت بالنص نفسه، سواء كان على سبيل الموازنة بينه وبين الشعر الجاهلي أو على مستوى استنباط صور البيان فيه أو على مستوى البحث في القيمة العلمية لمضمونه. يبقى أنّ صفة الإعجاز في القرآن احتفظت باستمراريتها، كآخر حلقة من حلقات الظاهرة الدينية، كونها خاتمة الرسائل والرسائل، ولأنّها أيضا لم تخص مجموعة بشرية معينة، بل جاءت موجهة للناس أجمعين عبر العصور المختلفة والأجيال المتعاقبة، ورغم اختلاف نوع ودرجة الإدراك التي تمثلت في التذوق الفطري عند عرب الجاهلية، الذين كان مجرد سماعهم الآيات القرآنية يوقع في النفس حدثا، كون خصائص بيان البشر مختلفة عن خصائص بيان القرآن وبدائع نظمه، وبعدها في التذوق العلمي، بسبب التغير في التاريخ الإسلامي نتيجة التطور الهائل للعلوم في أواخر الدولة الأموية وخلال الدولة العباسية، فتغيّرت صفة الإدراك للآيات القرآنية وأصبحت لا تخصّ إلا عددا قليلا من المسلمين المالكين لوسائل التذوق العلمي. (36)

واليوم أصبحت ضرورة إيجاد صفة إدراك جديدة مسألة ملحة في فضائنا الإسلامي الجديد، الذي لا يملك المسلم فيه فطرة العربي الجاهلي ولا قدرات عالم اللغة في العصر العباسي، لهذا اتجهت انشغالاته إلى تناول الآيات من حيث المضمون ومن حيث تكوينها النفسي الموضوعي، وليس من ناحية الشكل أو من ناحية العبارة. (37) فقد ارتكز البناء الحضاري على الدين، لكن في الحاضر نصطدم بنوعين من الدين، الأول الذي يسلم بوجود الله وبأصلية وجوده في الضمير البشري، والدين الذي يفترض ألوهية المادة، ويسلم بأصلية وجودها غير مخلوقة، ويعتقد بتواجد الفكرة الدينية من حين لآخر كعارض ثقافي مفاجئ في تاريخ البشرية. غير أنّ الموازنة والتفرقة بين التصورين، يحدّد في الأخير فشل المادية في الإجابة على كثير من التساؤلات، التي إن أعدناها حسب المادية إلى المصادفة لا تستجيب لمطالب العقل الفلسفية، في حين تُعدّ الحتمية الغيبية الميتافيزيقية متناسقة ومنسجمة مع متطلبات العقل، لأنّ عدم الإجابة الآنية على تساؤلات كثيرة يمكن تسويقها ضمن الإرادة الإلهية.

(36) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص 62.

(37) نفس المرجع، ص 67.

فإسقاط مفهوم الظاهرة القرآنية على الواقع ، ينعكس في مسألة التوحيد التي جاءت بها النبوة عن طريق الوحي ، و"خصوصية هذا الوحي ومضمونه هما الأمارتان المميزتان للمبشّر لرسالة النبي ، هذا إلى أنّها هي السمة المميّزة للنبوة ، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي . "(38)

IV. مقارنة السياقات التاريخية للمنظومة الفكرية الغربية والإسلامية

اجتهد مالك بن نبي كثيرا في مسألة تبعية مثالية الدين الإسلامي ، وعمل على تأسيس بديل سياسي إسلامي ، دعامته تحويل النظر عن نموذج ينال مرتبة الصدارة في الفكر الغربي ، ويطرح ضرورة تقرير سلطة الإنسان في نظام اجتماعي معيّن ، وهو النموذج الديمقراطي ، إلى نموذج يخوض منذ مدة معارك سياسية ثقافية وحضارية عديدة ، لنيل الإنسان مرتبة الصدارة ، حيث يستوجب الاقتراب من هذه الصدارة في الواقع تحقيق الممارسة السياسية الإسلامية للشروط الذاتية ، التي من شأنها تحقيق الشعور الديمقراطي نحو الأنا ونحو الآخرين . (39) ونقطة انطلاقه في ذلك هو الإحساس بوزن التكريم الذي منّه الله على الإنسان ، والذي نستشفّه من نصّ الآية الكريمة: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفصّلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا" (سورة الإسراء، آية 70) ، ودرجة محاربته لأشكال العبودية والاستعباد ، ومقاومة كلّ أشكال العلوّ الناتجة عن هذه الممارسات ، وجوهر مضمونه جميع أنواع الحريات والحقوق التي منحها إياها .

وأكثر من ذلك ضمانات هذه الحريات والحقوق ، دينية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو غيرها ، ونتيجته الحتمية تشكيل أواصر الثقة ، التي ساق في إطارها مالك بن نبي؛ تثبيتا لأهميتها ، الحوار المشهور الذي دار بين الحكيم الصيني كونفوشيوس وتلميذه تسي كونغ حول السلطة ، حيث حدّد كونفوشيوس قوام السلطة في ثلاث: لقمة العيش المتوقّرة كضرورة لكل فرد والتجهيزات العسكرية والقدر الكافي من الثقة بالحكام ، فإن وجب الاستغناء عن إحداها أو عن بعضها فعلى التجهيزات العسكرية أوّلا ولقمة العيش ثانيا ، وأصرّ على عدم فقدان الثقة كونها أساس الدولة ، لأنّ احتكاك الدول المستعمرة بمظاهر وتجليات ثقافات الدول التي استعمرتها وحضاراتها ، أفرز تقبّل هذه الدول لبعض العادات والمفاهيم والأحكام التي ارتقت داخل منظماتها الاجتماعية والثقافية إلى مقاييس ترجع إليها في الحكم على واقعها الاجتماعي .

(38) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، مرجع سابق ، ص 86 .

(39) يوسف حسين ، نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث ، ط 1 . الجزائر: دار التنوير للنشر والتوزيع ، 2004 ، ص 100 .

وضمن منطق هذا التفكير الذي يتجاوز اليوم السؤال عن وجود ديمقراطية في الإسلام، إلى البحث مباشرة في وصف تجلياتها بداخل مضمونه، تدخل عمليات الموازنة بين المفاهيم الاجتماعية والسياسية الإسلامية وبعض المفاهيم الاجتماعية والسياسية الغربية الأساسية⁽⁴⁰⁾ والوقوف أمام الضرر الكبير الذي تسببه هذه الموازنات. فالربط بين مفهوم ينطوي على تقرير سلطة الإنسان في نظام اجتماعي معين، مع مفهوم ينطوي بدوره على تقرير خضوع نفس هذا الإنسان لسلطة الله، يفرز إشكالا من الناحية المنطقية والفكرية. فلطالما اختلف المعنى الحقيقي للإسلام وراء حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الذي رواه الأئمة مسلم والبخاري والترمذي، عن أبي هريرة عندما سُئل ما الإسلام؟ فأجاب: "الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة وتحصم رمضان"، فبين بهذا أن عبادة الله والخضوع لله هو جوهر وأساس هذا الإسلام.

فيما ورد عن الديمقراطية ثلاثة مستويات من الوصف، يُكوّن مجموعها المفهوم الحقيقي لهذه الديمقراطية، فعلى مستوياتها الأولى والثاني تأتي بوصفها شعورا نحو الأنا ونحو الآخر، يتضمن "التقدير لقيمة الإنسان تقديره لنفسه وتقديره للآخرين"،⁽⁴¹⁾ الذي تُوج بحراكه كان على رأسه حركة الإصلاح وحركة النهضة الأوروبيتين " كأول تصريح بقيمة الإنسان الأوربي في مجال الروح وفي مجال العقل ". فإن كانت هناك إمكانية لقيام موازنة سطحية على مستوى المفهومين وإمكانية نقل المفهوم أو المصطلح إلى خارج بيئته التي تكوّن فيها، فهل يمكن نقل المعنى التاريخي للديمقراطية إلى بيئة جديدة؟ وهل يمكن نقل هذا النضال التاريخي والحركة السياسية والاجتماعية التي صنعت من التابع للملك في أوروبا مواطنا، ومن الموجيك في روسيا القيصرية رفيقا؟

يقول مالك بن نبي: "الإنسان الحر رأي الإنسان الجديد الذي تتمثل فيه قيم الديمقراطية والتزاماتها، هو الحد الإيجابي بين نافيتين تنفي كل واحدة منهما هذه القيم وتلك الالتزامات: نافية العبودية ونافية الاستعباد"،⁽⁴²⁾ فالديمقراطية الغربية شكلتها ظروف الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للأفراد، وهي صيرورة تاريخية تعمل على إخراج الإنسان من وضعية العبودية والاستعباد. ولضمان عدم السقوط مرة أخرى في هذه النافيتين، ظهر المستوى الثالث للديمقراطية بوصفها مجموعة الشروط الاجتماعية السياسية الضرورية لتكوين وتنمية الشعور الديمقراطي لدى الفرد، وهذا يعني توفير حقوق سياسية

(40) مالك بن نبي، تأملات، ط 1. الجزائر: دار الوعي للنشر والتوزيع، 2013، ص 65.

(41) نفس المرجع، ص 69.

(42) مالك بن نبي، تأملات، ط 1، المرجع السابق، ص 70.

و ضمانات اجتماعية نجد الأولى عند "المواطن" في البلاد الغربية والثانية عند "الرفيق" في البلاد الشرقية، وهذا ما أفرز العديد من النماذج الديمقراطية الغربية في أوروبا والديمقراطية الشعبية في الشرق والديمقراطية الجديدة في الصين .

ولكننا عندما نبحث عن هذا الشعور بالديمقراطية في الإسلام ، أو بالأحرى في المشروع الإسلامي ، نجده محاطا بشيء من القداسة والتأليه ، لأن مسألة تقدير قيمة الفرد أو الإنسان تعدّ أمرا إلهيا يبرز في قوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم" . ففي ظلّ سلطة الإنسان في النموذج الديمقراطي ، نجد الحركية السياسية والظروف الاجتماعية هي من يمنح الإنسان هذا الشعور ، بينما في ظلّ خضوع الإنسان لله في المشروع الإسلامي ، فإنّ الله هو الذي يمنح هذا الشعور للإنسان أي لعباده ، وهذا يؤدي إلى محور أي صلة مع الاستعباد أو الاستبداد في نفسية الفرد المسلم .

وقد برهن الواقع العملي الإسلامي في فترة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفترة الخلفاء الراشدين على ذلك ، من خلال صفة التعامل مع الكثير من المسائل وعلى رأسها قضية الرّق التي جاء تحريمها التدريجي في القرآن الكريم ويقول فيها صلى الله عليه وسلم: "أوصاني حبيبي جبريل بالرفق على الرقيق ، حتّى ظننت أنّ الناس لا تستعبد ولا تستخدم" ، وأكّد على ذلك في حجة الوداع التي اعتبرها الكثيرون وصيته لأجيال المسلمين المقبلة حين قال: "يا أيّها الناس إنّ ربكم واحد وإنّ أباكم واحد ، كلّمكم لآدم وآدم من تراب ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلّا بالتقوى . . ." كذلك مسألة طاعة المحكومين لأولي الأمر أين يقول الله تعالى: يا أيّها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إنّ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . ." (سورة النساء ، آية 59) وقد ظهرت حدود هذا الحكم وحدود هذه الطاعة في خطبة عمر رضي الله عنه المعروفة في ردّ البدوي البسيط عليه كما سبق وأشرنا إلى ذلك " . . . من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقمّني . " وردّ البدوي عليه: "والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناك بسيفنا . "

وكذلك مسألة الحريّات وعلى رأسها حرّية المعتقد التي تظهر في الآية الكريمة: "لا إكراه في الدين" وكذلك في قوله: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه . " (سورة الملك ، آية 15) وحرية التعبير التي تظهر حين أعلن عمر في المنبر ، وهو خليفة المسلمين ، تقديره للصدّاق لتسهيل الزواج لكلّ مسلم ، فاعترضت على ذلك امرأة استشهدت بآية ترجع تحديد الصدّاق إلى تقدير الزوجين أنفسهما فقال الخليفة عمر: "أصابت امرأة وأخطأ عمر" ، وكذلك حماية الحقوق التي تبيّنت حين لجأت إلى القضاء امرأة يهودية يقع ملكها ضمن حدود بناء مسجد عمر ، ولم يلتفت القائم

بالمشروع إلى وجهة نظرها تطبيقاً لمبدأ أسبقية المصلحة العامة على المصلحة الفردية، والتي وفها الخليفة عمر رغبتها مبرراً ذلك أنّ بناء مسجد لا يكون مصلحة عامة بالنسبة إلى يهودية، وحتى مسألة المبايعه طبقاً لمبدأ الشورى التي يقرّها النهج الإسلامي لقوله تعالى: "وشاورهم في الأمر" (سورة آل عمران، آية 14) أيضاً: "وأمرهم شورى بينهم" (سورة الشورى، آية 38) وأيضاً مسألة الزكاة كأساس لتشريع اجتماعي عام، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد: "إنّ الله اقتطع من أموال المسلمين الأغنياء نصيباً هو نصيب الفقراء لأنّ الفقراء لا يجوعون ولا يعرفون إلاّ بسبب الأغنياء"، وأيضاً مسألة تحريم الربا لمنع احتكار البنوك، والمنح التي أقرّها الخليفة عمر للأمّهات المرضعات للأطفال . . .

خاتمة

لقد تبين من خلال ما سبق ، وهي بضع أمثلة فقط ، أسبقية العامل الأخلاقي على العامل الحكومي ، وأسبقية المصلحة العامة على المصلحة الخاصة؛ وعبرت هذه الأمثلة على وعي كبير في الضمير وشعور راق تجاه الآخرين . ورغم بداية ظهور الاستبداد في عهد معاوية ، إلا أنّ ذلك لم يؤد أبداً إلى ظهور صفة "العبد" لدى المحكومين ، لبقاء سمو الروح الإسلامية ، وهذا ما تبيّنه استمرارية الرقابة على أعمال الحكم رغم هذا الاختلاف في الحكم ، وقد ظهر ذلك في تأنيب الصحابة للحاكم على سلوكه وتصرفاته رغم صفة الحكم هذه .⁽⁴³⁾

في الأخير ، يركز مالك بن نبي ، من خلال مجمل أفكاره ، على أنّ عناصر تركيب حضارة ما ولوازمها موجودة في كلّ المجتمعات بدون استثناء ، لكن عملية تركيبها تعود إلى عنصر أو معطى خاص تمثل عند "هيجل" في الجدلية التاريخية وعند "أرنولد توينبي" في وظيفة التحدي والاستجابة ، وعند ماركس في المادية التاريخية ، بينما تحدّد عند مالك بن نبي في الفكرة الدينية المرتبطة بالفاعلية البشرية ، التي تحوّل وضعية التخلف والضعف إلى وضعية قوة وتقدّم من خلال تغيير ذاتية الإنسان من الداخل (النفس) .

وهذا لا يكون برقي العقل البشري إلى دائرة أو مستوى حلول مشكلة الحضارات ، لكن قبل ذلك رقي العقل إلى استيعاب ما يحدث حوله ، وإلى خلفيات وتداعيات بناء الحضارات وانحطاطها ، الذي يمكن أن يبدأ بمجرد فكرة هي لحظة ميلاد مجتمع ، مثل ما حدث مع المجتمع الإسلامي . هذه اللحظة تكون ضمن عوالم ثلاثة: عالم الأشياء وعالم الأفكار وعالم الأشياء ، التفاعل بينها يعني توفر نماذج تفكيرية تستند صياغتها ، توفر أشياء أي وسائل تنفيذها- وتنظر إلى نهاية يرسمها الأشخاص ، والتي يؤدي الاختلال على مستواها إلى الوقوع في فخ الأفكار القاتلة أو الميتة والتي هي أخطر من الأولى .

(43) مالك بن نبي ، تأملات ، المرجع سابق ، ص 93 .